مطابقة أصل الوضع اللغوي في الأصوات العربية
بين المحافظة والتجديد
دراسة تطبيقية في علم التجويد

Matching Arabic Language Sounds Origins
Between Preservation and Renewal
Applied study on the science of Tağwīd

فتحي بودفلة
جامعة الجزائر1 بن يوسف بن خدة
f.boudefla@univ-alger.dz

الملخص:
تهدف هذه المقالة ابتداء إلى تأكيد ضرورة المحافظة على خصائص أصوات اللغة العربية مطابِقة لأصل وضعها اللغوي الأوّل، تماما كما نفعل ذلك ونشترطه في بنية الكلمات الصرفية وتركيباتها النحوية ودلالاتها الأوّلية. تعمد المقالة إلى محاولة تبيّن سُبل الإبقاء على الأصوات العربية بوصفها ووضعها الأوّل بين المحافظين - قدماء كانوا أم معاصرين - والمجددين من خلال الحديث عن دور علم التجويد التقليدي في الحفاظ على هذه الخصائص الصوتية، ثم الحديث عمّا يمكن أن يقدمه هذا العلم من خلال مناهج وتطبيقات الدعوات التجديدية.

الكلمات المفتاحية: الأصوات العربية، اللحن الصوتي، التجديد في التجويد، اللحن.

Abstract:

This article primarily aims to emphasize the need to preserve Arabic language sounds in accordance to its initial linguistic origins, in the same way as we do in the structure of morphological words, grammatical structures and initial denotations. Thus, this paper attempts to find methodological and practical ways to preserve Arabic language sounds with their primitive characteristics, whether among conservators - old and modern - or among innovators. This is done by applying it to the science of Tağwid recitation of the Quran.

Keywords: Arabic sounds, Tağwid renewal, sound.

مقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمدا عبده ورسوله، أما بعد:

فإنّ من عجائب هذه اللغة التي تُبينُ عن قوّتها وتُفصحُ عن تفوّقها وتقدُمها على غيرها من اللغات قُدرتُها على الحفاظ على خصائصها في مختلف مستوياتها الصوتية والبنيوية والتركيبية والدلالية طوال مدّة تداولها، فهي هي لم تتغير -في جوهرها- منذ معلقات امرئ القيس، وزهير بن أبي سلمة إلى قصائد أحمد شوقي وروايات أحلام مستغانمي. ولا توجد لغة حيّة أو ميّتة، متروكة أو متداولة استطاعت أن تصمد لمتغيرات الزمن ومستجداته دون أن تتأثر في بنيتها ودلالتها، وتتغيّر في حقيقتها وجوهرها حتى تصير لغة أخرى غير التي كانت، لا يعرفها قومها أصلا فضلا عن فهمها وتكلمها إلاّ هذه اللغة رغم مرونتها الواسعة، بقيت كما كانت، صامدة وثابتة، محافظة على حقيقتها وأصل وضعها.

انطلاقا من هذا الثبات، تحاول هذه المقالة مناقشة وجه من أوجهه، وهو ثبات مستواها الصوتي، فهي تهدف ابتداء إلى تأكيد ضرورة المحافظة على خصائص أصوات اللغة العربية مطابقةً لأصل وضعها اللغوي الأوّل، تماما كما نفعل ذلك ونشترطه في بنية الكلمات الصرفية، وتركيباتها النحوية، ودلالاتها الأوّلية الأصلية، لكنّها لا تُطلق العنان لدراسة هذه الحيثية وتبحثها في مختلف الحقول العلمية وتنظر في تجلياتها وتبعاتها في كلِّ مجالاتها المعرفية، وإنّما تخصُّها بمجال محدّدٍ، لا تتعداه ولا تتجاوزه هو علم التجويد؛ فعلم التجويد هو الفنّ المعرفي في تراثنا الإسلامي الذي اختص -أو توسَّع- في دراسة كيفية أداء الأصوات العربية، وتحمَّل عبء المحافظة على هذه الأصوات وِفق نطقها الأصلي الأوّل، كما تزعَّمَ جبهة محاربة ودرء كلِّ تغييرٍ صوتي يطرأُ عليها.

إنّ أهمّ هَدَفٍ ترومه هذه المقالة هو محاولة تبيّن سُبل الإبقاء على الأصوات العربية بوصفها ووضعها الأوّل عند المتقدمين والمحافظين من المعاصرين من خلال تتبع ما قدّمه علم التجويد في هذا المجال، ثم تنتقل بعد ذلك إلى دعاة التجديد في علم التجويد، لتحاول الوقوف على المناهج والوسائل الجديدة المقترحة للحفاظ على الخصائص الصوتية للغة العربية.

وفي خِضِم دراسة هذه الإشكالية العلمية، ستعالج المقالة "بالتبعية" مجموعة من الإشكاليات المعرفية الجديدة، أو على الأقلّ تلك التي تحتاج إعادة نظر، أو مزيدَ تحليل وتحرير؛ لعلَّ من أهمِّها: الموازنة بين المادة الصوتية التي يدرسها علم التجويد والتي تدرسها علوم العربية، هل اختص علم التجويد بأصوات لم تتلفظ بها العرب؟ هل أضاف شيئا؟ هل غيّر أو عدّل في كلام العرب؟ وما هي أهمّ الفروق بين علوم العربية وعلم التجويد من حيث دراسة الخصائص الصوتية للحروف العربية؟ ثم نقلُ القراء لخصائص الأصوات العربية، هل يمكننا الوثوق به كلَّ الوثوق، ونجزم أنّه لم يحدث فيه خللٌ طوال هذه الأحقاب الزمنية الطويلة؟ كيف يمكننا تحديد ومعرفة العدول عن أصل الوضع الأوّل للخصائص الصوتية العربية؟ فنسمها لحونا، وكيف يمكننا علاج هذه اللحون الصوتية، وردّها لأصلها الأوّل؟

1. الدراسة الصوتية بين علم التجويد وعلوم العربية:

لقد كانت دراسة الخصائص الصوتية للغة العربية في تراثنا المعرفي القديم عملا مشتركا بين حقلين معرفيين متباينين: علم النحو أو العربية، وعلم التجويد[1]. ثم ما فتئت هذه الدراسة تختلف وتتميز من حيثيات عدّة ومناحي شتّى؛ من أهمّها:

- قصر علم التجويد موضوعه في أصوات القرآن الكريم، وهو في علوم العربية أصوات العربية كلّها.
- منهج وغاية دراسة الصوت في العربية يأخذ أبعادا متعددة ومتنوعة كدلالته واتساقه وجمالياته، بينما علم التجويد يهتم بالصوت من أجل الصوت ذاته دون النظر لدلالاته ولا لوظائفه.

لكن ما يهمنا من جميع هذه الأوجه كون علم التجويد يهدف إلى الحفاظ على جميع خصائص أصوات القرآن الكريم، ونَقْلِها مشافهةً، ملفوظة منطوقة تماما كما كانت العرب تلفظها وتنطقها في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، أما علوم العربية فقد قصّرت في الحفاظ على الخصائص الصوتية للغة العربية من جهتين اثنتين:

أ. علوم العربية درست الأصوات كأبواب في مختلف فنونها وعلومها، لكنّها لم تخصّص لها علما مستقلا بذاته كما فعلت مع مختلف المستويات اللغوية الأخرى، بل تركت ذلك لعلم التجويد حتى وإن كان مجال دراسته محدودا بالقرآن الكريم، ولكنها فعلت ذلك من جهة كون أكثر أصوات العربية موجودة في القرآن

الكريم، فكأن علماء العربية استغنوا بعلم التجويد وبدراساته ومباحثه عن إحداث علم جديد يكون قسيما لباقي علوم العربية يتخصص في دراسة أصوات اللغة ونقلها والحفاظ عليها. وفي العصر الحديث اعتمد اللّسانيون العرب علوما متعلقة بالأصوات تدرسها من جهة إنتاجها والنطق بها فيزيولوجيا، ومن جهة قياساتها ووصفها تجريبيا وفيزيائيا، ومن جهة السمع وطريقة استقبالها مخبريا، سماها جون ليونز بعلم الأصوات النطقي وعلم الأصوات التجريبي وعلم الأصوات السمعي[2]، هذا دون الحديث عن وظائفها، لكن هذه العلوم اللسانية الحديثة للأسف الشديد تدرس أصواتنا العربية على ما هي عليه اليوم ولا تدرس أصل الأصوات العربية، وفرق بين أصواتنا التي ولجها اللحن والعوج والتأثر بمختلف الألسنة واللغات وبين أصوات العرب بخصائصها الأولى.

ب. أنّ علماء العربية أهملوا الجانب العملي التطبيقي، فلم نسمع عن علماء اللغة المتأخرين -على الأقلّ- روايةً أو مشافهة بعض الأصوات العربية كالاختلاس والروم والإشمام والإمالة والتغليظ وإشراب الصاد زايا، وتخفيف النون وإخفائها، وتسهيل الهمز . ولنسأل علماء اللغة اليوم هل منكم من يقرأ بهذه الظواهر الصوتية خارج القرآن الكريم، هل منكم من يمدّ حروف المدّ في حديثه بفصيح اللغة في محاضراته ودروسه وتدخلاته. والمدّ هو أيسر هذه الظواهر من حيث الحفاظ على أصل وضعه الأول؛ أي على صفته التي نطق بها العرب زمن الاحتجاج اللغوي، فكيف بالإمالة والاختلاس.

وإذا أردنا أن نميّز بين منهجية دراسة علم التجويد للأصوات العربية وعلوم الأصوات العربية الحديثة نقول:

1. إنّ علم التجويد يدرس الأصوات العربية كما يدرسها علم الأصوات المعياري، بينما تدرسها علوم العربية وفق منهج علم الأصوات الوصفي. وعلم الأصوات الوصفي يدرس أصوات لغةٍ ما كما ينطقها أهلها في بيئتها الخاصة وفي مرحلة معيّنة، بينما يدرسها علم الأصوات المعياري كما ينبغي أن تكون، أي يدرسها وفق معاييرها الصحيحة لا وقف ما هي عليه. واللغة العربية الصحيحة والمعيارية في تراثنا المعرفي هي ما كانت عليه قبل انقضاء زمن الاحتجاج.

2. علم التجويد يدرس الأصوات العربية دراسة سنكرونية أي يدرسها خلال مدّة زمنية محدّدة هي زمن النبوة ونزول الوحي، بينما تدرسها علوم العربية دراسة دياكرونية فهي تدرسها وفق ما عرض لها من تطور، فبعض أصوات العربية التي درسها سيبويه في الكتاب تختلف عن الأصوات التي درسها إبراهيم أنيس - مثلا- في كتاب الأصوات اللغوية، وسبب الاختلاف أنّ كلَّ واحد منهما وصف الأصوات التي سمعها ونطق بها العرب في زمانه. وإذا كان علم التجويد يعتبر تغيّر الخصائص الصوتية للغة العربية لحنا ينبغي اجتنابه، فإنّ علوم العربية تعتبره تطورا ينبغي دراسته لفهم حيثياته، واعتماده باعتباره واقعا لغويا.

والخلاصة أنّ علم التجويد هو:

- أوّلا: العلم "الإسلامي" الذي اختصَّ بدراسة الأصوات العربية من خلال الوقوف على كيفية أداء الكلمات القرآنية.
- ثانيا: هو العلم الذي يدرس خصائص هذه الأصوات باعتبار وضعها في زمن النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، وهو زمن لا خلاف بين علماء العربية بصحّة الاحتجاج به.
- ثالثا: لا يكتفي علم التجويد بدراسة الخصائص الصوتية كما كانت في زمن النبوة بل يعمل على الحفاظ عليها وعدم تغيّرها والعدول عنها، كما يعمل على تعليمها ونقلها للأجيال.

2. الخصائص الصوتية ركن ركين في بنية ودلالة اللغة العربية:

1.2. المقصود بالخصائص الصوتية:

إنّ حقيقة اللغة أكبر من أن تكون مجرد مجموعة أصوات يعبّرُ بها كل قوم عن أغراضهم[3]، أو نظام لهذه الأصوات[4]، اللغة من حيث منهجُ استعمالها ودلالاتها في الواقع وفي مخزون أصواتها فكرُ الأمة وثقافتُها، بل قد يستشهدُ بها على مستقبلها، واللغة هي أعظم ما أبدعه الإنسان، هي الفرقان بينه وبين باقي مخلوقات الله عزّ وجل؛ لهذا لا تزال الحضارات الإنسانية على مرّ الدهور وكرّها تعرِّف الإنسان وتميزه عن غيره بنطقه.[5] ولكن يبقى منطلقُ اللغة ومادتُها على اختلافهم في تعريفاتها أصواتُها التي يقع بها تمايز اللغات واختلافها، وبها يعلو بعضها على بعض، وبها يقع الإبداع في النظم، والإقناع والجودة في الفهم[6]. والمقصود بالخصائص الصوتية

مظاهرها ومواصفاتها التي تُعْرف بها حروفها؛ فيزيولوجيا من خلال بيان موضع إنتاجها وكيفيته، أو فيزيائيا من خلال تحديد قياساتها من حيث الزمن والقوة والارتفاع كوصف الصاد بالاستعلاء وما فيها من الإطباق والصفير، أو القاف بالقلقلة، أو اللام بالانحراف، والراء بالتكرار... إلخ.

2.2. الخصائص الصوتية جزء من بنية الكلمة العربية:

إنّ هذه الخصائص إنّما هي جزء من بنية الكلمة؛ لأنّ البنية الصرفية تتغير بتغير هذه الخصائص، ولعل من أمثلة ذلك زيادة مدٍّ في الحركات القصيرة يغيّر الصيغة الصرفية للكلمة وبالتالي دلالتها، ونُمَثل لذلك بنحوِ (كَتَبَ)، ففتحة الكاف لو زاد المتكلم في مدِّها أصبحت اللفظة (كَاتَبَ)، ولو فعل الشيء نفسه مع الباء لتغيّرت إلى صيغة صرفية أخرى (كَتَبا)، ولو ترك القارئ إطباق الصاد في (عصى) لتلفظ بها (عسى)، ولو فعل الشيء نفسه مع الظاء في (محظورا) لصارت (محذورا). وكما التزمنا في بناء الكلام العربي بأصل الوضع الأوّل، فكذلك ينبغي أن نلتزمه في خصائص أصوات هذا البناء؛ لأنّ الصوت هو أوّل البناء وأصله، ولأنّ تغيّر أصوات الكلمة يؤدي ولا بدّ إلى تغير بنائها.

3.2. الخصائص الصوتية من موارد الدلالة في اللغة العربية:

الدلالة في اللغة مستقاة من أصغر وحدة في الكلام إلى أطول فقرة فيه، فالسين في سورة النّاس لم يأت تكررها هكذا سهللا وعفو الخاطر... وإنّما أريد لها أن تُشِعَّ دلالة الهمس والضعف والإخفاء المناسبة تمام المناسبة لوسوسة شياطين الإنس والجنّ، كما أريد لتكرار المقاطع في {زُلزلت} إفادة معنى الاضطراب والاستمرار، المناسب لواقع الزلزال العظيم.

وقد قيل في صوت الغين أنّه يفيد معنى الاستتار والغَيْبَة، كما في: غاب، غار، غاص، غال، غام. والجيم تفيد معنى الجمع كما في: جمع، جمل، جمد، جمر... إلخ.

ولا يخفى على أحد من العارفين بطبيعة اللغة العربية الاشتقاقية أنّ تغير الصيغ الصرفية إنّما هو نتاج تغيرات صوتية محضة، فمادة (ك،ت،ب) في مختلف صيغها (كَتَبَ) (كَاتَبَ) (كَتَبَا) (كُتِبَ) (كُتِبَا) (كِتَابٌ) (كُتَّابٌ) (كَتْبٌ) (كِتْبٌ) (كُتْبٌ)... إلخ كلُّ هذه الصيغ الصرفية اختلفت دلالاتها لاختلاف أصواتها.

ولا يخفى على أحدٍ من العارفين بإعراب اللغة العربية، أنّ أصل هذه الخاصية مبني على ظواهر صوتية، فتغيّر الإعراب الذي يفيد ولا بدّ تغيرا في المعنى إنما يتمثل في تغيرات صوتية تطرأ على أواخر المفردات العربية من حركات قصيرة وطويلة، تامّة أو غير تامّة.

إذا فكل تغيير في الأصوات يؤدي ولا بدّ إلى تغيير في المعنى، سواء كان هذا المعنى مأخوذا من الصوت مفردا، أو من الكلمة الواحدة، أو الجملة المركبة.

3. محافظة علم التجويد على خصائص اللغة العربية باعتباروضعها الأوّل:

1.3. كيف حافظ علم التجويد على الخصائص الصوتية للغة العربية؟

لنبدأ أوّلا بتعريف علم التجويد: هو "علم يبحث في أصوات الكلمات القرآنية من حيث إعطاء حروفها حقّها ومستحقّها"[7]؛ فالمقصود بحقّ الحرف خصائصه الصوتية التي تلزمه في كلّ حال، والمستحقُّ خصائصه التي تعرض له في أحوال دون أخرى، وبهذا يدرس علم التجويد جميع خصائص أصوات الحرف ويفرق بينها من حيث عَرْضِها وتبويبها ومعالجتها باعتبار اللزوم والعروض.

وسنحاول الآن التعريف بما قدّمه هذا العلم من أجل الحفاظ على أصل الخصائص الصوتية للغة العربية:

- ✓ إيجابه المحافظة على أداء الأصوات العربية كما كان يؤديها رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ فعلم التجويد لا يدعو للحفاظ على الأصوات العربية باعتبار أصل وضعها فحسب بل يوجب ذلك. قال ابن الجزري:

  والأخذ بالتجويد حتم لازم=== من لم يجود القرآن آثم

- ✓ ضبطه لعملية التصويت وإنتاج الصوت وآلياته وفق اعتبارات وآليات عدّة أهمّها:

  - التفريق بين الصوت والحرف: فرّق علماء التجويد بين الصوت والحرف، فالحرف هو صوت يعتمد على مقطع محقق أو مقدّر، وبعضهم زاد وصف "صوت ساذج يعتمد على مقطع..."[8]، فعملية التصويت في علم التجويد تمرّ بأربعة مراحل: مرحلة الأمر الذهني، ومرحلة النفس أو الهواء، ومرحلة الصوت أو الصوت الساذج، ومرحلة الحرف. فصَّل علماء التجويد القول في مرحلة الحرف وأشاروا فقط إلى مراحل الصوت والهواء والأمر النَّفْسي...

- تحديد المجال الفيزيولوجي الذي تُنتَج فيه الحروف العربية أو ما يسمى بالمدرج الصوتي ابتداء من أقصى الحلق ممّا يلي الصدر إلى الشفتين، وهو أطول مدرج صوتي تتميّز به لغة من لغات البشرية المعروفة.
- التفريق بين المواضع والمخارج الرئيسية والمخارج الفرعية: فالمواضع التي تُنتِج الحروف العربية أو بعض خصائصها الصوتية خمسة هي: الجوف، والحلق، واللّسان (أو الفم) والشفتان، والخيشوم. بعض هذه المواضع تنقسم إلى مخارج رئيسة كاللسان بأقصاه ووسطه وحافتيه وطرفه، كلُّها تسمى مخارج رئيسة، والتي بدورها تنقسم إلى مخارج فرعية؛ فطرف اللسان ينقسم إلى مخرج الحروف اللثوية والنطعية والصفيرية، ومخرج النون والراء...
- تفصيل القول في مخارج الحروف: جمهور علماء التجويد جعلوها سبعة عشر، وخالف بعضُهم الجمهورَ بالزيادة والنقصان: أوّل هذه المخارج هو أقصى الحلق ممّا يلي الصدر مخرج الهمزة والهاء، ويليه مخرجان في الحلق وسطِه للعين والحاء وأدناه للغين والخاء، وفي أقصى اللسان مخرجان القاف والكاف، وفي وسطه مخرج الجيم والشين والياء، وفي أقصى حافته مخرج الضاد، وفي أدناها على خلاف، مخرج اللام، وفي طرفه مخارج الحروف النطعية واللّثوية والصفيرية ومخرج النون والراء، وفي الشفتين مخرج الفاء ومخرج الباء ومخرج الميم، والغنة الصوت الملازم لحرفي النون والميم مخرجه الخيشوم.
- التفريق بين حقيقة الصوائت والصوامت ومفهومها: رغم أنّ تراثنا المعرفي لم يسمِّ هذه الحروف بهذه المسميات المعاصرة، لكنّه فرّق بينها باعتبارات عديدة، يهمنا ها هنا الاعتبار الصوتي؛ فعلماء التجويد فرّقوا بينهما باعتبار المخرج، فالصوائت مخارجها مقدرة، والصوامت مخارجها محققة.
- التفريق بين الحروف الأصلية والفرعية: فرّق علماء التجويد بين الحروف باعتبار إنتاجها إلى حروف أصلية وهي حروف الأبجدية المعروفة، وفرعية هي ما دونها، والأُولى مخرجها منضبط ومحدّد، والثانية ما تردّدت بين حرفين أصليين، ومخرجها بين مخرجين أصليين. ومن أمثلة الحروف الفرعية، الألف الممال، والصاد المشربة زايا، والنون المخفاة والميم المخفّفة.

- التفريق بين الحركات الأصلية والفرعية؛ الحركات الأصلية هي الحركات العربية الثلاث، الفتحة والضمة والكسرة، وما دونها فهي فرعية، ومن أمثلة الفرعية الاختلاس والروم والإشمام بأنواعه والقلقلة والإمالة والتقليل والفتح الشديد، فهذه الحركات تتردد وصفا ومخرجا بين حركتين أصليتين كالإمالة المترددة بين الفتح والكسر، والفتح الشديد المتردد بين الفتح والضم، أو مترددة بين التحريك والسكون كالاختلاس، والقلقلة، والروم.

✓ ضبطه لخصائص الأصوات العربية: سأذكر هنا شيئا بسيطا من هذا الضبط والتقعيد للخصائص الصوتية للغة العربية.

- باعتبار أزمان التلفظ بها

✓ حروف المدّ واللين: لعلماء التجويد في تحديد مقادير المدود مذاهب لعلّ من أضبطها تقسيمها إلى سبعة مراتب: خمسة منها صحيحة واثنان عدّوهما لحنا في القراءة، فأمّا المقادير الصحيحة فهي: القصر وفُوَيْقَ القصر والتوسط وفُوَيْقَه والطول، وأمّا المقادير التي عدّوها لحنا فالاختلاس وهو دون القصر والإفراط وهو فوق الطول.

ضبط القراء هذه المدود بالنقل والمشافهة ضبطا متواتراً بنقلِ أمّةٍ عن أمّةٍ، واعتمد بعض المتأخرين كالإمام المرعشي معيار الحركات في قياس مقادير المدود، فالقصر عنده بمقدار التلفظ بحركتين قصيرتين، وفويقه ثلاث حركات، والتوسط أربعة، وفويقه خمسة، والطول ستة. واعتمد آخرون قبض أصبع اليد أو بسطه لقياس الحركة، وذهب بعض المعاصرين إلى أنّ الحركة تعدل 16% من الثانية، ولكن هذه المقادير جميعها رُوعي فيها مطابقة النقل والرواية والمشافهة.

✓ وما صنعه القراء مع حروف المدّ من حيث تحديد مقادير المدّ تحديدا متناهي الدقة فعلوه مع حروف اللين، ومع الغنّة والاستطالة وصفات أخرى فيها معنى الامتداد والطول كالتفشي والرخاوة والهمس والتكرار، ولكنّهم ميّزوا بين جميع حالات هذا الامتداد فإذا كان الامتداد في حروف المدّ واللين امتداد أصوات، فهو في الغنّة توقف الصوت مدّة حركتين في حيّز محدّد هو الخيشوم، وفي حالات خاصة هي إخفاء النون الساكنة

وإدغامها مع نفسها أو مع الميم والواو والياء، أو مع الميم حالة إدغامها مع نفسها أو إخفائها مع الباء، وقد فرّقوا بين هذه الحالات جميعا باعتبار مقدار الغنّة وقوّتها، وأما الاستطالة فهي استطالة مخرج الضاد حيث يستغرق حافة اللسان من جهة أقصاها كلّها مع ما يليها من الأضراس العليا، والضاد بسبب هذه الاستطالة يعتبر أطول صامت في العربية من حيث زمن التلفظ به، وأمّا امتداد الشين فتفشي صوته وانتشاره في الفم، وفي الهمس جريان النفس عند التلفظ بحروفه، وفي الرخاوة جريان الصوت عند التلفظ بحروفه... إلخ.

- ✓ التفريق بين الحركات (الصوائت) باعتبار زمنها وتمامها، هذا التفريق تمّ عمليا وبتسميات أخرى غير التسميات التي سنذكرها: الحركات الطويلة: وهي حروف المدّ، أو حروف المدّ واللين، وقد اتفقوا على كونها أطول الأصوات من حيث زمن امتدادها، والحركات القصيرة: هي الحركات العربية الثلاث، والحركات غير التامة: كالاختلاس والروم والقلقلة؛ فهذه الحركات من حيث زمنها وحجمها أقلّ وأصغر من الحركات القصيرة. ومقياسُ التمام ومعيارُه في هذه الظواهر الصوتية الحركاتُ القصيرة، فهي التّامّة، وما فوقها زائد على التمام، وما تحتها ناقص عن التمام.
- ✓ باعتبار ارتفاع الصوت وانخفاضه: قسَّمَ القراء الحروف العربية باعتبار ارتفاع أصواتها وانخفاضها إلى أقسام عدة: الاستعلاء: وحروفه هي المجموعة في قولنا: (خص ضغط قظ)، اتَصفت بهذا الوصف بسبب استعلاء أقصى اللسان نحو الحنك الأعلى، وإنّما سميت مستعلية لأجل لزوم هذه الصفة لحروفها، ويقابل هذه الصفة الاستفال. والإطباق: وحروفه (ط،ظ،ص،ض) وصوتها أكثر ارتفاعا من حروف الاستعلاء من جهة أنّ اللسان مع هذه الحروف الأربعة يرتفع أقصاه وجملة أخرى منه نحو الحنك الأعلى، ويقابل هذه صفة الانفتاح. والتفخيم والتغليظ: صفتان خصَّ بها القراء الحروف التي تتردد بين الاستعلاء والاستفال بسبب عروضها عدلوا عن اصطلاح الاستعلاء الذي يفيد لزوم ارتفاع الصوت، ويطلق التغليظ في حقِّ اللام والتفخيم في حقِّ الراء، وتقابلهما

صفة الترقيق. والتبعية لما قبله: خاص بالألف المدّي، فإنّه باعتبار الاستعلاء والاستفال تابع لما قبله، فهو في نحو (طالوت) مستعلٍ، وفي نحو (جالوت) مستفل. والتبعية لما بعده -على خلاف مشهور في المسألة-: ذهب بعضهم إلى أنّ غنّة الإخفاء باعتبار الاستعلاء والاستفال تابعة لما بعدها فهي في (أنفسهم) مستفلة وفي (ينصركم) مستعلية.

- ✓ كشف اللّحن الصوتي ودرؤه عن القرآن الكريم: لا يكتفي علم التجويد بالحفاظ على خصائص الأصوات العربية من خلال تحديد ماهيتها وضبط أحكامها، بل يدرأُ اللّحن عنها ويمنعُ العدولَ عن حقيقتها من خلال تحديد هذه اللّحون وتصنيفها وبيان خطئها ووجوب تصحيحها والعودة بها إلى الأصوات الصحيحة المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم[9].

2.3. هل في أحكام تجويد القرآن الكريم أصوات لم تتكلم بها العرب؟

نحاول من خلال هذا الفرع النظر في الخصائص الصوتية للقرآن الكريم، هل جميعها عربية الأصل؟ أم أنّ بعضها محدث خاص بالقرآن الكريم لا أصل له في كلام العرب؟

إنّ ممّا أجمعت عليه الأمة كون القرآن نزل بلغة العرب ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف 2]، ونزل بأصل الوضع الأول دون تحوير أو تغيير ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر 28] والعوج ها هنا عام يستغرق كلّ أفراده، وتغيير الصوت أحد هذه الأفراد التي يعمّها ويشملها. لهذا نقول بكل اطمئنان إنّ القرآن الكريم عربيٌّ بكلّ أصواته، لكن سنحاول مناقشة بعض ما أثير حول هذه المسألة من إشكالات وشبه.

التغني: قالوا إنّ العرب لم تكن تتغنى بمطلق الكلام، وإن كان لها نَوعَ ترنّمٍ وترجيع بالشعر، وهذا التغني بالقرآن الكريم يعطيه نغما يفيد دلالات قد لا يكون العرب قصدوها والتمسوها فيه.

أوّلا إنّ أصل التغني مأخوذ من كلام العرب فقد روى الخطابي عن إبراهيم بن فراس قال: سألت ابن الأعرابي عن هذا فقال إن العرب كانت تتغنى بالركبان إذا ركبت الإبل وإذا جلست في الأفنية وعلى أكثر أحوالها، فلما نزل القرآن أحبّ النّبيّ صلى الله عليه وسلّم أن يكون القرآن هِجّيرَاهم مكان التغني بالركبان[10]. ثمَّ إنّ هذا

النغم الذي ذكروا أنه يؤثر في المعنى فإنّه لا يؤثر فيه بل يتأثر به، فالمتغني بالقرآن إنّما يتفاعل معه باعتبار دلالاته ومعانيه من خوف وترهيب، وأمل ورجاء وترغيب، وحقيقة التغنّي إنّما شُرِّع في خصوص القرآن الكريم دون سواه من أجل أن يتميّز به عن غيره، في أسلوب قراءته، كما تميّز في باقي أحكامه، من استفتاح وختم ووجوب تجويد... إلخ.

مقادير المدّ: كثيرا ما يُنتَقد القراء بسبب أحكام المدّ، بل نُسِبَ ذلك لبعض أهل اللغة[11]، فزعموا أنّ هذه المدود إنّما هي من خصائص تلاوة القرآن الكريم، وأنّ العرب لم يؤثر عنهم مثله، والصواب خلاف ذلك فكتب اللغة القديمة أشارت إليه، والمدّ موجود في اللغات كلّها، إنّما اختلافهم في أسبابه ومقداره، ومن حيث الأسباب يكفي أن نشير أنّ الأسباب المعنوية للمدّ موجودة في اللغات كلها فصيحها وعاميتها. ولو لم تكن العرب تمدّ في كلامها لكان لهم وجه ينتقدون به القرآن الذي وصف نفسه أمامهم وبين أيديهم أنّه عربي وتحدّاهم بعربيته.

اعتماد أصوات دون أخرى: القرآن نزل بلغة العرب نعم، لكنّه انتقى منها أفصحها وأفضلها، وترك كثيرا من أصواتها، ترك بعضها لرداءتها كالكشكشة، والعنعنة، والطمطمة، والتلتلة، والشنشنة... إلخ، وبعضها فصيحة ولكنّها لا تتناسب وبلاغته المعجزة، وهذا ليس عيبا في القرآن الكريم، بل ميزة أن حافظ على أفصح اللّغات وأحسنها، بينما ما تركه منها لم يبق منه سوى نتفا وشذرات في كتب اللغة لا نقطع بصحة ثبوتها فضلا عن صحّة وصفها. وعلم التجويد إنما تكفل بالحفاظ على أصوات القرآن التي اختارها الله سبحانه وتعالى خاصة، دون سائر كلام العرب، حتى ولو كان فصيحا، فهو إنّما يعمل في حقل معرفي محدّد ومغلق، وكان ينبغي للعربية التي فتحت مجال دراستها للعربية كلّها، أن تعملَ -هي- على الحفاظ على هذه اللهجات واللغات التي تركها القرآن الكريم، فالعيب هنا ليس في علم التجويد بقدر ما هو في علوم العربية وعلمائها.

المفردات الأعجمية في القرآن الكريم: وجه هذه الشبهة أنّ هذه الكلمات الأعجمية أصواتها ممّا لم تتكلم به العرب، وقد أقرّها القرآن الكريم واستعملها؛ ما يفيد مغايرة وتمايزا بين أصل الكلام العربي وبعض أصوات القرآن الكريم. والردّ على هذه الشبهة أنّنا لو سلّمنا بوجود كلمات أعجمية في القرآن الكريم - مع العلم أنّ

المسألة خلافية - فإنّ الاتفاق واقع على أنّها لم تدرج في القرآن بصياغتها وأصواتها الأصلية، بل عُرِّبت، وتعريب الاسم الأعجمي كما قال الجوهري: "أن تتفوه به العرب على منهاجها"[12]، وعقد سيبويه في كتابه "باب ما أعرب من الأعجمية"[13] ذكر فيه أوجهَ التغيير التي تطال الكلمات الأعجمية إذا استعملتها العرب، وهي في مجموعها محاولة لإعادة صياغة الكلمة وتغيير أصواتها بما يتناسب وأصل لغة العرب. ومثله صنع ابن دريد في "الجمهرة" بعنوان "باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغة"[14].

3.3. هل أحدث علماء التجويد في أصوات القرآن ما لم يكن فيه؟

إنّ التباين في أداء بعض القراء المعاصرين واختلافهم نظريا في كثير من أصوات القرآن الكريم، وكذا اختلاف وصف بعض الأحكام الصوتية في مصادر علم التجويد، كلّ ذلك يدل على أنّ خللا وقع في نقل علم التجويد لأصوات اللغة، ومن أمثلة هذا التباين والخلاف الذي لا يخلو بعضه مِن أن يكون لحنا ولا بدّ لأنّه اختلاف تضاد الحق فيه واحد لا يتعدّد: إخفاء الميم، وقصر اللين، واستطالة الضاد، وتعطيش الجيم... إلخ، يقول الإمام المرعشي (1150ه) مبيّنا وجه ولوج اللّحن في القراءة: "لمَّا طالت سلسلة الأداء تخلّل أشياء من التحريفات في أداء كثير من شيوخ الأداء..."[15]، ولكن رغم ذلك لا يمكن أن يخلو النقل من القراءة الصحيحة؛ لأنّ القرآن محفوظ ببنائه ومعانيه وبنظمه ومضمونه، وبأحكامه وأصواته؛ فإنّ مثل هذا النوع من اللّحن لا يمكن أن يعمّ القراءة كلّها، بل لن تجده إلاّ وتقابله رواية أخرى تثبت الصوت الصحيح الموافق لما هو مروي في المصادر القديمة، حتى وإن كانت هذه الرواية قليلة أو مهجورة، لكنّها موجودة وصحيحة النقل والسند. وقد بسطتُ القول في هذه المسألة في مقال خاص (اللحن الصوتي في اللغة العربية أسبابه وعلاجه).

4. تطوير علم التجويد وتجديده لمواصلة الحفاظ على أصول الأصوات العربية وخصائصها:

إنّ التجديد في مختلف العلوم ضرورة معرفية قبل أن يكون واجبا شرعيّا، ولا وجه لهذا التوجّس المفرط من التجديد بداعي الخوف على التراث من تحريفه، أو بداعي انتفاء أسباب التجديد، أو بدواعٍ أخرى. إنّ هذه العلوم التي بين أيدينا لم تكن

على ما هي اليوم عند بداية نشأتها، وإنّما مرت بمراحل مختلفة، متعرضة في كلِّ مرحلة إلى التطوير والتجديد، حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم، وهكذا العلم كلّه عملية تراكمية تشارك فيها أجيال الأمة جميعها، ولا ينبغي أن يتوقف الأمر عندنا ويمتنع التجديد معنا لنحرِم هذا الجيل من فضل المشاركة في بناء معرفة الأمة، ومن التواصل مع تراثه وخدمته. وعلم التجويد كغيره من العلوم يحتاج إلى أن يجدّد ويطوّر ويرتقي به أصحابه اليوم، كما ارتقوا به بالأمس. ومجالات تجديده كثيرة ومتنوعة منها ما يتعلق بتبويبه وتصنيف مباحثه، ومنها ما يتعلق بتهذيب مصطلحاته، ومنها ما يتعلق بتحرير بعض مسائله المعلقة. ومن أهم مجالات التجديد فيه توسيع موارِده ومصادره بما يخدم مسائلَه ومباحثه، وهذا النوع من التجديد هو الذي يهمنا في هذه الورقة باعتبار هذه الموارد والمصادر الجديدة تساعد على الحفاظ على أصوات اللغة العربية وتدرأ عنها اللحن والخطأ الصوتي.

1.4. توسيع البحث في فيزيولوجية الأصوات العربية:

إنّ إنتاج الصوت اللغوي يمرُّ بأربعة مراحل:

- ✓ مرحلة الذهن: حيث يصدر الذهن أوامره بالكلام المخصوص.
- ✓ مرحلة الرئتين: حيث ينتقل أصل الكلام من أوامر ذهنية إلى كمية مخصوصة من الهواء.
- ✓ مرحلة الأحبال الصوتية: حيث يتحول الهواء كلُّه أو بعضُه إلى "صوت ساذج"، أو صوت ليس له خصائص مميّزة، ونغمة مكتملة ومنضبطة.
- ✓ مرحلة المخارج: حيث يتحول الصوت إلى حرف ذي خصائص صوتية محدّدة ومنضبطة.

فإذا كان علماء التجويد بحكم ظروفهم وإمكانياتهم قصروا بحثهم على المرحلة الأخيرة من إنتاج الصوت العربي، مرحلة مخارج الحروف دون ما قبلها؛ لأنّ أدواتهم المستعملة والتي تكاد تنحصر في الحسِّ لم تكن تسمح بأكثر من ذلك، فالواجب والمحتّم اليوم أن نوسع دائرة هذه الدراسة ومجالها، وأن ندرس باقي المراحل بما يوفره العلم من إمكانيات مادية ومعرفية، وأن نبدأ بمرحلة الذهن فندرس المناطق الذهنية التي تشارك في إنتاج الأصوات وصناعتها، ككون الجهة اليسرى من المخ هي

الموكلة بمسائل اللغة، أو دور منطقة بروكا، ومنطقة فرينك، والحزمة العصبية التي تربط بين المنطقتين، والمنطقة الحركية، واللحاء السمعي، واللحاء البصري...[16].

كما يمكننا دراسة عملية إنتاج الصوت على مستوى الرئتين، والبحث عن حقيقة إرادية الزفير المستعمل في الكلام، وهل الهواء المستعمل في عملية التنفس هو نفسه المستعمل في الكلام؟ أم أنّ هواء الكلام منفصل عن هواء التنفس؟ هل حجم الهواء المستعمل في الحروف العربية واحد في مختلف الحروف أم أنّه يختلف باختلافها؟ وهل الهواء جميعه يتحول إلى صوت في عملية الكلام؟ أم أنّ بعضه فقط يتحول وبعضه الآخر يبقى هواء ونفسا؟

وعلى مستوى الأحبال الصوتية: كيف يتحول الهواء إلى صوت؟ هل الأحبال الصوتية هي وحدها المسؤولة عن هذا التحوّل؟ وما طبيعة هذا الصوت؟ وفيما يختلف عن كلٍّ من الهواء (أصله)، والحرف (مآله)؟

2.4. توسيع البحث في فيزيائية الأصوات العربية:

بعض أقسام علم الأصوات الحديث يمكننا الاستعانة بها لدراسة جوانب جديدة لم تدرس قديما، يأتي في مقدمتها الفونتيك (Phonetics) و"هو علم يدرس الأصوات فيزيائيا وعضويا من حيث إنتاجها، ومخارجها، وأعضاء نطقها، وصفاتها، [وانتقالها، وسماعها.] وهو يهتم بالأصوات من جانبها الصوتي البحت دون نظر خاص إلى ما تنتمي إليه من لغات، ولا إلى وظيفتها الكلامية في لغة معينة"[17] . وقد قاد عملية الاستعانة بهذا العلم وإدماج خبرته ومعارفه في علم التجويد جماعة من العلماء على رأسهم الأستاذ غانم قدوري الحمد، حيث يقول: "إنّ إعادة علم التجويد بالاعتماد على مصادره القديمة الأولى وكتب علم الأصوات اللغوية الحديثة لن تُغَيِّرَ من حقيقته أو تُغَيِّرَ المتعارف عليه من قواعده، ولكنها سوف تكون مفيدة في زيادة معرفة الدارسين بطبيعة الصوت اللغوي وفي جعل قواعده أكثر وضوحا وتعلمها أكثر يسرا، إن شاء الله تعالى. وهذا الكتاب هو محاولة لكتابة علم التجويد في إطار هذه الخطة" [18]. لكن هذه الاستعانة لم تتجاوز الجانب النظري، لم تخرج في الغالب الأعم من المقالات والكتب وتنزل إلى الواقع وتدخل المخابر الصوتية لتستعين بالتحليلات المخبرية، والإحصاءات العلمية، والمقاسات الدقيقة، والرؤية الرقمية العميقة.

ولعلَّ من أهمّ فروع علم الأصوات التي يستطيع علم التجويد الانتفاع بها ما يلي: علم الأصوات النطقي (articulatory phonetics) الذي يدرس الجانب الفيسيولوجي المحض، أي يتناول بالدراسة عملية النطق من جهة آليتها وأعضائها. وعلم الأصوات الفيزيائي (acoustic phonetics) الذي يدرس مقاسات الأصوات وكيفية انتقالها، ومجال دراسته الحروف العربية من خارج الفم إلى الأذن. وعلم الأصوات السمعي (auditory phonetics) الذي يدرس جانب إدراك الأصوات على مستوى الأذن والمخ فيسيولوجيا ونفسيا، وهذا يساعد على الحفاظ على أصل الوضع الأوّل للأصوات من جهة سماعها الصحيح وبالتالي نقلها الجيد. وعلم الأصوات التجريبي أو المعملي أو المخبري (experimental phonetics) المتعلق بالآلات المستعملة في ترجمة الأصوات إلى مخططات، وإثبات مقاساتها وفق وحدات خاصة، وتصوير الأعضاء المشاركة في عملية التصويت، وتقليد العملية ذاتها (simulator).

3.4. ضبط منهج تصحيح اللحون الصوتية:

المنهج المحافظ الذي التزمه علماء التجويد منذ القدم ولم يغيروه قط قائم على اكتشاف اللحن أوّلا، ثم تصحيحه وفق عملية تبدأ بسماع الصوت مجودا من فم الشيخ، ثم ترديده عليه مرات وكرات حتى يتمكن القارئ من الارتقاء بصوته إلى صوت الشيخ. ورغم كون هذا المنهج قد آتى أكله وظهرت ثمرته، إلاّ أنّ ذلك لا يمنعنا من إعادة النظر فيه لا من أجل إلغائه وإنما لمحاولة تطويره وتنميته، والبحث عن الوسائل العملية والمنهجية التي تسهل اكتشاف اللحون، وتصنيفها، وإتقان تصحيحه.

وقد بيّنت في مقال "اللحن الصوتي" معالم تجديدية منهجية وتطبيقية مِن شأنها أن تضبط اللحون أكثر وتُسَرّع وتُسَهّل تصحيحها، هذه المعالم قائمة على ثلاثة أركان: الركن الأوّل: تصنيف اللّحون باعتبار أسبابها (ذهنية، نفسية، هوائية، اجتماعية، صوتية مطّردة، صوتية مفردة...)، الركن الثاني: تصحيح اللّحون انطلاقا من هذه الأسباب والتصحيح حينها ستختلف قواعده وتتعدد مناهجه بالنظر إلى هذه الأصول والأسباب، الركن الثالث: هذه اللّحون تختلف من حيث أسبابها وأصولها نعم، لكنّها من حيث مظهرها جميعها صوتية، فمعرفتها وتصحيحها لا ينبغي أن تُغْفَل فيها المعالم والضوابط الصوتية؛ فلا بدّ أن نستعين في تصحيحها بعملية التصويت وآلياتها.

توسيع مجالات تصحيح اللحون الصوتية:

إنّ عملية تصحيح اللحن لا ينبغي أن تبقى محدودة في اكتشافه بالسمع، وتصحيحه بالإعادة والتقليد بل ينبغي أن تتجاوز ذلك من خلال الاستعانة بمعارف حقول علمية أخرى، ومن خلال التنويع في أساليب التعرف على اللحون، ومناهج تصحيحها. وسأكتفي هنا بتعريف بسيط لبعض المجالات التي يمكننا تجديد تصحيح اللحون في إطارها، ثم بيان حقيقتها بشيء من التطبيقات العملية، والأمثلة الواقعية.

المجال التوجيهي: إنّ من أهمّ ما يساعد على تصحيح اللّحن فهمُه ومعرفةُ سببِه وأصلِه، أو ما يسمى في علم القراءات والتجويد "توجيهه" فالتوجيه هو محاولة تعليل الحكم ووصفه وصفا دقيقا يوقفك على حقيقته. وهذه أمثلة لبعض اللحون الصوتية المحضة، والتي يمكننا أن نُحَسِّن من أسلوب اكتشافها ومنهجيته، وتصحيحها من خلال توجيهها، وفقه حقيقتها:

المبالغة في تكرار الراء: اللحن المعروف في حرف الراء هو المبالغة في التكرار، وسبب وقوع هذا اللحن هو عدم إخراج حرف الراء من مخرجه الصحيح، فالراء يخرج من طرف اللسان مع ما يحاذيه من اللثة، لكن اللاحن الذي يكرر الراء يخرجها من طرف اللسان غير ممكنة مع اللثة، فإنّه يبقي فرجة وفجوة بين طرف اللسان واللثة ما يدع طرف اللسان حرّا ويجعله يرتعد في الفراغ مسببا بذلك هذا التكرار المحظور، فسبيل علاج هذا اللحن والتخلص منه يكمن في تمكين طرف اللسان من اللثة.

القلقلة: اللحون المتعلقة بالقلقة كثيرة جدّا سواء قلقلة ما لا ينبغي قلقلته، أو عدم قلقلة المقلقل، أو القلقلة المبالغ فيها، أو التي لا يستوفى حقّها. ولكي نقف على حقيقة هذه اللحون ينبغي أوّلا التعرف على ماهيتها، ثم بعد ذلك نبيّن سبل علاجها. إنّ الكلام كلّ الكلام لا يخرج عن كونها أصواتا مسموعة أو أنفاسا محسوسة، وقد يحبس أحدها في الحروف ويجري الآخر في المقابل، لكن الذي يقع في حروف القلقلة هو انحباس الصوت والنفس؛ ما يعني انحباس مادة الكلام؛ وما يستلزم عدمه، وهذا هو الذي يقع عند التلفظ بهذه الحروف مشددة مجهورة دون قلقلة يمتنع التلفظ بها. والقلقلة هي وسيلة للتلفظ بها ليس إلاّ، فعندما تكون متحركة فإنّ الحركة هي التي تتكفل بالنطق بها، لكن عندما تكون ساكنة فوسيلة التلفظ بها هي القلقلة، فما هي القلقلة إذاً؟ القلقلة صائت فرعي فصيح بين السكون والفتح، وهو من نوع الحركات

غير التامة، كالروم والاختلاس، دوره تيسير التلفظ بهذه الحروف المخصوصة، وعلاج لحون القلقلة يبدأ بمعرفة هذه الحقيقة أوّلا ثم بتطبيقها ثانيا من خلال إدراك مخرجها المتعلق بوضع الشفتين والفم من حيث فتحهما عند التلفظ بأحرفها. ويخطئ من يحسب للقلقة علاقة بمخارج هذه الأحرف؛ بدليل اختلاف مخارجها، أو من يزعم قرع اللسان بها، واللسان لا دخل له ولا دور في التلفظ ببعضها، فعلى القارئ كي لا يقلقل السواكن غير المقلقة أن لا يفتح شفتيه عند الإسكان ولو أدنى فتح... وعلى القارئ كي لا يبالغ في القلقلة أن لا يبالغ في فتح شفتيه...

المجال الاجتماعي: يكاد يجمع علماء التجويد قديما وحديثا على نسبة لحون مخصوصة لمناطقة جغرافية محدّدة، أو جماعات عرفية خاصة، وستجد في مصادر هذا العلم كلِّها إشارات إلى مثل هذه اللحون، وإذا أردنا أن نُمَثِل لأحدهم فليس أفضل من شيخ القراء وأمير الأداء محمد بن محمد أبي الخير شمس الدين ابن الجزري (833هـ) في كتابه النشر في القراءات العشر حيث ذكر مجموعة من اللحون المنسوبة لمناطق جغرافية منها: الجيم التي ينتشر صوتها في الفم فتشرب شينا لحن نسبه ابن الجزري إلى كثير من أهل الشام ومصر[19]، وارتفاع اللسان عند التلفظ بالجيم فيشربها كافا نسبه ابن الجزري لبوادي أهل اليمن[20]، وترعيد الصوت بالراء ما ينتج عنها تكريرها نسبه إلى بعض الأندلسيين[21]، ونسب لبعض الأعراب والمغاربة إذهاب صفة الاستعلاء من القاف حتى تصير كالكاف الصماء[22].

لتصحيح هذه اللحون ينبغي مراعاة أصلها وأسبابها الاجتماعية من جهة، ثمّ طبيعتها الصوتية من جهة أخرى، متبعين الخطوات التالية:

أوّلا: إنشاء الصوت في ذهن القارئ؛ وذلك أنّ النشأة في بيئة تبدل صوتا بآخر يؤدّي بالضرورة إلى فقدان الخلايا الذهنية التي تحدد بالصوت المبدل أو تتعرف أو تنطق به، ولن يستطيع اللاحن ها هنا أن ينتقل إلى صوت لا وجود له في ذهنه أصلاً، فلا بدّ من إنشائه أوّلا فيتمكن من تمييزه في السماع قبل أن يعمل ويشتغل على تصحيحه في النطق.

ثانيا: إنشاء هذا الصوت والتعرف على هذا اللحن يتم في بيئته الجغرافية أو العرفية؛ لأنّ تمييز اللحن لن يتم خارجه باعتبار ذهنه لا يعرف هذا الصوت، بل الصوت الذي يسمعه يترجمه العقل إلى الصوت المستبدل الذي يستعمله في

محيطه، ولن يتعرف عليه إلاّ إذا سمع الصوتين معا، صوت بيئته الخاصة والصوت الصحيح موازيا للصوت المبدل.

ثالثا: التصحيح في مستوى عملية التصويت وآلياتها، لأنّ اللحن مهما اختلفت أسبابه فإنّ ظاهره وتجلياته لا تعدو أن تكون صوتية، لا تخرج عن عملية التصويت وآلياته، فالتاء الصفيرية مثلا صوت ولحن ينتشر في نواحي قسنطينة، وسكيكدة، وندرومة هي تاء مشربة سينا تخرج من أسلة اللّسان أي مستدقه مع ما يحاذيه من أطراف الثنايا العليا والسفلى، وسبل علاج هذا اللحن يكون باعتماد المَعْلَمَين السابقين، ثم بمحاولة صرف أسلة اللسان عن أطراف الثنايا العليا وتمكينه من أصولها، ومنع الثنايا السفلى من المشاركة في إصدار هذا الصوت. ومثلها التاء الشينية صوت ولحن ينتشر في المناطق الجزائرية الجنوبية، والغربية منها على وجه الخصوص مثل أدرار وتيميمون، وهي عبارة عن تاء مشربة صوت الشين، تخرج بتمكين وسط اللسان من جهة طرفه بالثنايا العليا، وسبل تصحيح هذا اللحن يكون باعتماد المَعْلَمين المذكورين أعلاه، ثمّ بصرف وسط اللسان عن المشاركة في صناعة هذا الصوت، واستعمال طرف اللسان مع أصول الثنايا، وأما لحن القاف المبدلة همزة، والذي ينتشر في مدينة تلمسان، وقد اعتبر هذا اللحن قديما من مظاهر التمدن والتحضر، بل الناظر فيه اليوم والمتتبع له يجده في نوعية خاصة من سكان تلمسان هم الحضر دون الوافدين عليها حتى ولو كانوا من المولودين والناشئين بها، وهو منتشر في النساء أكثر منه في الرجال، وفي كبار السنّ أكثر من الشباب، ويغلب في التخاطب بين الحضر ويقل إذا كان التخاطب مع غيرهم، وهذه الملاحظات في خصوص انتشار هذا اللحن تؤكّد كون سببه متعلق بأعراف خاصة، حتى أنّ بعض من يلحن به تجد لسانه يعدل عن اللحن إلى الصواب إذا كان في بيئة لا تعرفه أو لا تقرُّ به، وقد كنّا نجد صعوبة كبيرة في تصحيح مثل هذا اللحن، وما كنّا نتمكن من ذلك إلاّ بتصحيح عقائد النّاس في مثل هذه الولاءات الصوتية إذا كانت على حساب القرآن الكريم، وفي مثل هذا التميّز الذي يُقصد به نوع من الانتماء، وقد يصل إلى شيء من الفخر والاستعلاء.

المجال النفسي: إنّ حقيقة اضطراب الكلام واللّحن فيه، نتيجة عوامل نفسية، أصبحت اليوم من المسلمات المعرفية والحقائق العلمية، وهي تدرس كتخصصات

أكاديمية لها مصادرها ومناهجها ورجالها العارفين بدقائقها. وأعتقد أنّ الاستعانة بمثل هذه التخصصات أصبح ضروريا لمواكبة التطور المعرفي من جهة، ولخدمة علم التجويد وتطويره من جهة أخرى. ثمّ إنّ الناظر في لحون التجويد سيجد أنّ كثيرا منها متعلق بعوامل نفسية خالصة، والاقتصار في تصحيحها على جانبها الصوتي، إن لم يكن عدولا عن الصواب أصلا، فهو بُعْدٌ عن حقيقتها، وتطويل لأسلوب تصحيحها، ومن أمثلة الأعراض النفسية المسببة للّحون: العجلة، والتؤدة، والخوف، والحياء، ومن أمثلة اللحون بسبب هذه المؤثرات النفسية: اللحن في أوّل القراءة (تعلقها بالتؤدة والعجلة)، واللحن في آخر القراءة (تعلقها بالتؤدة والعجلة)، واللحن في المدود والشدّات والغنن (باعتبارها أحكاما متعلقة بالزمن)، واللحن في القلقلة والاستطالة (باعتبارها صفات زائدة ينبغي مراعاتها).

أمثلة لتصحيح بعض اللحون النفسية:

- ✓ حذف الأصوات من أوائل الألفاظ خاصة عند ابتداء القراءة، ومن أمثلة هذا اللحن ونماذجه التي تكثر في قراءة الفاتحة؛ ترك التلفظ بهمزة الوصل في نحو: {اَللّٰه، اَلحمد، اِهدنا} والهمز المحقق في نحو {إيّاك، أنعمت}، ينبغي للشيخ والأستاذ أن يفرّق بين هذا النوع من اللحن إذا وقع آحادا أو تكرر من القارئ حتى أصبح ظاهرة في قراءته، فإن كان اللحن يقع مرة ومرتين فلعل سببه غفلة أو تأثر بأصوات مجاورة في خصوص هذا الموضع أو ذاك، لكن إن تكرر اللحن حتى أصبح ظاهرة فإنّ الراجح أنّ وراءه سببا مطّردا وهو في هذا النوع ليس متعلقا بالهمزة فقط بل بأوائل النطق والتلفظ، ولعلّ القارئ لأسباب نفسية كالتسرع أو التخوف لا تستجيب آلياته من أوّل التلفظ، وتصحيح هذا النوع من اللحن يقوم على الرياضة والتدريب الصوتي أوّلا، وعلى عقد العزم النفسي والحضور الذهني عند بداية القراءة ثانيا.
- ✓ حذف الأصوات من أواخر الألفاظ خاصة عند الوقف، ومن أمثلة هذا اللحن ونماذجه التي تكثر في قراءة سورة الفاتحة؛ ترك التلفظ بالنون في نحو: {العالمين، الدين، نستعين} وترك التلفظ بالميم في نحو: {الرحيم، المستقيم}، ولا يقتصر اللحن على النون والميم بل يعم ويشمل أكثر حروف الهمس والرخاوة، ولتصحيح هذا اللحن نتبع السبل المنهجية المتقدمة الذكر مع النموذج السابق،

فإذا لاحظنا اطّراد هذا اللحن نحاول علاجه على مستوى أصل أسبابه، فإن كان في مستوى الذهن فبمحاولة المحافظة على الإرادة والعزم النفسي والإحضار الذهني إلى آخر القراءة، وإن كان على مستوى الرئتين فبالحفاظ على مستوى الهواء إلى آخر القراءة والوقف قبل انقضاء حجم الهواء...

كثيرة هي اللحون من نوع إبدال صوت بآخر، وقلب الحروف، وكذا اللحون المتعلقة بأحكام المجاوَرَة كلّها كالإدغام والإخفاء والإظهار والقلب، فقد يكون القارئ جيّد التصويت بحروف القرآن الكريم مفردة، لكن يخطئ ويلحن إذا تعلق الأمر بتركيب هذه الحروف والأصوات، فينبغي للشيخ والأستاذ أن يبحثا في أسباب هذه اللحون ومتعلِقها، فإن كانت خاصة بحكم دون آخر كمن لا يحسن القلب دون سواه من الأحكام، فعليه أن يبحث في خصوص هذا الحكم ولعل الجهل به أو تعلقه بعضو خاص كالخيشوم أو الشفتين، أو بآلية صوتية كفتح الشفتين أو صفة إطباقهما ونحوها ممّا يمكن أن يكون سببا وراء هذا اللحن، فيعالج في موضعه، لكن إذا كان اللّحن مطردا في جميع أحكام المجاورة؛ فلا بدّ حينها من البحث عن سبب مشترك ولا يبعد حينها أن يكون متعلقا بالجانب الذهني أو النفسي كفقدان الكفاءة على تحليل التركيب، أو تشتيت التركيز إذا تعلقت القراءة بأكثر من حكم، ونحو ذلك من الأسباب التي ينبغي أن يعالج سببها وأصلها لا آحادها وجزئياتها.

5. تحليل النتائج:

إنّ أهم نتائج البحث المتطابقة مع فرضياته إثبات الدور الريادي والخطير الذي قام به علم التجويد في الحفاظ على خصائص الأصوات العربية وفق وضعها الأوّل، فقد استطاع طوال تاريخه أن يضبطها، ويصنفها، ويحافظ على أدائها كما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

لكن لأنّنا نريد لهذا الدور أن يستمر وبشكل أفضل وأرقى في الحفاظ على خصائص الأصوات العربية، انطلاقا من كونه يندرج في الحفاظ على أصل اللغة العربية؛ باعتبار خصائص أصواتها هي إحدى مميزاتها وإحدى أهم مواردها البنيوية والدلالية، فقد أثبتت هذه الدراسة أنّ الاستمرارية تقتضي ولا بدّ تطوير هذا العلم وتفعيل آليات جديدة أكثر ضبطا وإحكاما للأصوات العربية، وأسرع في اكتشاف لحونها وتصويبها.

وانطلاقا من هذه الحقيقة الإبستيمولوجية قدّمت هذه الدراسة نماذج لهذا التجديد والتطوير من خلال تأصيلات نظرية ومقترحات عملية، لعل أوّلها تنويع مصادر علم التجويد وموارده من مختلف الحقول المعرفية كعلم النّفس، وعلم الاجتماع، وعلم الأصوات، وعلم الطبّ والتشريح، والرقمية الآلية، وكتصنيف اللحون باعتبار أسبابها وأصولها، ثم علاجها من هذا المنطلق.

وقد حاولت هذه الدراسة إثبات ذلك كلّه من خلال علاقات منطقية بين الفرضيات والنتائج، ومن خلال أمثلة تطبيقية ميدانية استدلّ بها صاحب المقال على صحّة هذه المقترحات وكونها حقيقة وكفيلة بأن ترتقي بهذا الفنّ إلى مراتب أفضل ومراقي أمتن وأحسن.

خاتمة:

أكّدت هذه المقالة ابتداء ضرورةَ المحافظة على خصائص أصوات اللغة العربية مطابقة لأصل وضعها اللغوي الأوّل، تماما كما نفعل ذلك ونشترطه في بنية الكلمات الصرفية، وتركيباتها النحوية، ودلالاتها الأوّلية، لتنتقل بعد ذلك إلى الموازنة بين علم التجويد ومختلف علوم العربية من حيث دوره وآلياته وخصوصياته في الحفاظ على هذه الأصوات، لتوثّق وتؤكّد الدور الريادي لعلم التجويد في الحفاظ على أهمّ أصوات اللغة العربية، وهي أصوات القرآن الكريم دون سواها. وقد فصّلت المقالة في هذا الدور من خلال الوقوف على مبادئ هذا العلم وآلياته وبعض إشكالياته، لتنتهي إلى طرح مجموعة من الأصول النظرية والإجراءات العملية التي مِن شأنها أن تنمي قدرات هذا العلم، وتضمن استمراريته في الحفاظ على الخصائص الصوتية للغة العربية .

لتفعيل نتائج هذه الدراسة وتوثيقها وتوسيع الاستفادة منها يقدم صاحبها في ختامها هذه الاقتراحات والتوصيات:

- ✓ يوصي بدراسة عملية النطق والتصويت في المستويات والمراحل التي تسبق مرحلة المخارج، على مستوى الذهن، والرئتين، والأحبال الصوتية، تماما كما فعل أسلافنا مع مستوى مخارج الحروف.

- ✓ كما يوصي بفتح ورشات معرفية متعلقة بمختلف مجالات التجديد في علم التجويد، من أهمّها: توحيد تبويب مسائل علم التجويد، وتقديم حلول لمشكلة المصطلح في علم التجويد، وضبط حدود استفادة علم التجويد من مختلف الحقول المعرفية، إلخ.

هذا ما بلغه جهدي وأدركه فهمي، فإن أصبت فمن الله، ومن الله وحده، فله الحمد وله الشكر. وإن أخطأت فمن الشيطان ومن نفسي، وأستغفر الله وأتوب إليه.

الإحالات والهوامش:

[1] غانم قدوري الحمد، علم التجويد دراسة صوتية ميسرة، دار عمار، عمان، ط1، 1426هـ/2005م، ص5.

[2] جون ليونز، اللغة وعلم اللغة، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1 (د ت)، ص ص89-90.

[3] عثمان أبو الفتح بن جني الموصلي (392هـ)، الخصائص، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط4، (د ت)، ج1، ص34.

[4] ينظر: أبو بكر بن عبد الرحمن عبد القاهر الجرجاني (471هـ)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ودار المدني جدة، ط3، 1413هـ/ 1992م.

[5] جهد القريحة في تجريد النصيحة، جلال الدين السيوطي (911هـ)، تحقيق علي سامي النشار وسعاد علي عبد الرزاق، مجمع البحوث الإسلامية، دون تاريخ 19/2، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، أبو حامد محمد الغزّالي الطوسي (505هـ)، تحقيق بسام عبد الوهاب الحربي، دار الجفان والجابي قبرص ط1 1407هـ 1087م، ص35.

[6] جون ليونز، اللغة وعلم اللغة، دار النهضة العربية، مصر دون تاريخ، ص88.

[7] محمود علي بسّة (1367هـ)، العميد في علم التجويد، تح: محمد الصادق قمحاوي، دار العقيدة الإسكندرية، ط1، 1425هـ/ 2004م، ص7.

[8] غانم قدوري الحمد، فكرة الصوت الساذج وأثرها في الدرس الصوتي العربي، مجلة معهد الشاطبي للدراسات القرآنية، جدة، ع4، 1428هـ، ص190.

[9] فتحي بودفلة، "اللحن الصوتي في اللغة العربية أسبابه وعلاجه دراسة تطبيقية في تجويد القرآن الكريم"، الملتقى الوطني الموسوم بـ: "ظاهرة اللحن في اللغة العربية المشكلات والحلول"، كلية الآداب واللغات بالاشتراك مع مخبر اللسانيات العربية وتحليل الخطاب، جامعة مصطفى اسطمبولي - معسكر يوم 2019/06/20م، معسكر، الجزائر.

[10] حمد أبو سليمان بن محمد الخطابي (388هـ)، معالم السنن، المطبعة العلمية، حلب، ط1، 1351هـ/1932م، ج1، ص291.

[11] ينظر: قصة مناظرة إبراهيم المارغني لبعض علماء العربية المعاصرين له، ذكرها ابنه في آخر رسالة هاء الكناية بهامش النجوم الطوالع: إبراهيم المارغني، النجوم الطوالع، دار الفكر بيروت (د ت)، ص230.

[12] إسماعيل أبو نصر بن حماد الجوهري الفارابي (393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم الملايين، بيروت، ط4، 1407هـ/1987م، مادة (عرب)، ج1، ص179.

[13] سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي (180هـ)، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ/1988م، ج4، ص303 وما بعدها.

[14] محمد أبو بكر بن الحسن بن دريد الأزدي (321هـ)، جمهرة اللغة، تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م، ج3، ص1322.

[15] ينظر: غانم قدوري الحمد، أبحاث في علم التجويد، دار عمار، عمان، ط1، 1422هـ/2002م، ص5.

[16] ينظر: محمد إسماعيل بن شهداء، إنتاج اللغة في الدماغ دراسة في علم اللغة العصبي، مجلة جامعة دار السلام الدولية (Unida Journals)، مج 2، ع1، أبريل 2015م.

[17] نصر الدين إدريس جوهر، علم الأصوات لدارسي اللغة العربية من الأندونسيين، مكتبة لسان عربي، سيدورجو جاوى الشرقية إندونيسيا، ط3، 1438هـ/2017م، ص21.

[18] غانم قدوري الحمد، علم التجويد دراسة صوتية ميسرة ص5... ص8، ينظر: أبحاث في علم التجويد، للمصنف نفسه ص ص7-9.

[19] محمد بن محمد أبو الخير بن الجزري (833هـ)، النشر في القراءات العشر، دار الفكر، بيروت، (د ت)، ج1، ص217.

[20] المرجع نفسه، الجزء نفسه، ص 218.

[21] المرجع نفسه، الجزء نفسه، ص 219.

[22] المرجع نفسه، الجزء نفسه، ص 221.

قائمة المصادروالمراجع:

1- الأزدي، محمد أبو بكر بن الحسن بن دريد (321هـ)، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين (بيروت)، الطبعة الأولى، 1987م.

2- بسّة المصري، محمود بن علي (كان حيا سنة 1367هـ)، العميد في علم التجويد، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار العقيدة، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1425 هـ - 2004 م.

3- بن الجزري، محمد بن محمد أبو الخير (833هـ)، النشر في القراءات العشر، دار الفكر، (بيروت)، دون تاريخ.

4- بن شهداء، محمد إسماعيل، إنتاج اللغة في الدماغ، دراسة في علم اللغة العصبي، مجلة جامعة دار السلام الدولية (UNIDA JOURNALS)، المجلد2 العدد 1، أبريل 2015م.

5- بودفلة، فتحي، "اللحن الصوتي في اللغة العربية أسبابه وعلاجه دراسة تطبيقية في تجويد القرآن الكريم"، الملتقى الوطني الموسوم بـ "ظاهرة اللحن في اللغة العربية المشكلات والحلول"، كلية الآداب واللغات بالاشتراك مع مخبر اللسانيات وتحليل الخطاب جامعة مصطفى اسطمبولي - معسكر، يوم 2019/06/20م، معسكر، الجزائر.

6- الجرجاني، عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد (471هـ): دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني (القاهرة)، دار المدني (جدة)، الطبعة الثالثة، 1413هـ - 1992م.

7- جوهر، نصر الدين إدريس، علم الأصوات لدارسي اللغة العربية من الإندونيسيين، مكتبة لسان عربي، سيدورجو جاوى الشرقية، إندونيسيا، الطبعة الثالثة، 1438هـ-2017م.

8- حمد أبو سليمان بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (388هـ)، معالم السنن (شرح سنن أبي داود)، المطبعة العلمية، (حلب)، الطبعة الأولى، 1351 هـ - 1932 م.

9- الحمد، غانم قدوري، "فكرة الصوت الساذج وأثرها في الدرس الصوتي العربي"، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، جدة، العدد الرابع، ذو الحجة 1428هـ.

10- الحمد، غانم قدوري، أبحاث في علم التجويد، دار عمار (عمان)، الطبعة الأولى، 1422هـ-2002م.

11- الحمد، غانم قدوري، علم التجويد دراسة صوتية ميسرة، دار عمار (عمان)، الطبعة الأولى، 1426هـ 2005م.

12- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي (180هـ)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، (القاهرة)، الطبعة الثالثة، 1408 هـ - 1988 م.

13- السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين (911هـ)، جهد القريحة في تجريد النصيحة، تحقيق علي سامي النشار وسعاد علي عبد الرزاق، مجمع البحوث الإسلامية، دون تاريخ

14- الغزّالي، أبو حامد محمد بن محمد (505هـ)، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق بسام عبد الوهاب الحربي، دار الجفان والجابي قبرص ط1 1407هـ 1087م.

15- الفارابي، إسماعيل أبو نصر بن حماد الجوهري (393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، (بيروت)، الطبعة الرابعة، 1407 هـ-1987 م.

16- ليونز، جون، اللغة وعلم اللغة، دار النهضة العربية (القاهرة)، الطبعة الأولى، دون تاريخ.

17- المارغني، إبراهيم، النجوم الطوالع في شرح الدرر اللوامع، دار الكتب العلمية (بيروت)، (د ت).

18- الموصلي، عثمان أبو الفتح بن جني (392هـ)، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة)، الطبعة الرابعة، دون تاريخ.